السبب الثاني لرفض هذا القياس هو أننا لسنا بحاجة إليه إذا وضعنا في الاعتبار نتيجة التفرقة بين القول والكلام. فالسماء لا تتكلم، والأرض لم تتكلم والله سبحانه لم يخاطبهما تكلمًا بل «قولاً»، والقول غير التكلم.

ونواجه الإشكال نفسه بتفاصيله مكررةً في فهمهم قول الله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد﴾[1].

ويغلب على ظننا أنَّ القول يدل على تبليغ المعنى وتوصيله بأية طريقة للتواصل، علمناها أم لم نعلمها، لا على توصيله باستعمال اللغة الإنسانية خاصة.

فحيثما تكون الرسالة قد أرسلت يمكننا أن نستعمل اللفظ «قال» للتعبير عن طريقة إرسالها، أيا كانت هذه الطريقة.

وهذا المعنى هو الذي يجمع الاستعمالات المذكورة جميعًا، بما فيها الاستعمال الشعري، فالناقة قالت، بما بدا عليها من التعب، والأرض قالت بالطاعة والاستجابة، وجهنم قالت بالاتساع والاستيعاب والإنسان يقول باللفظ أو بالإشارات المتعارف عليها بين أفراد المجتمع الواحد، ولافتات المرور تقول بما تحمله من رسوم دالَّة، والملائكة والجن والشياطين قالوا بطريقتهم التي لا نعلمها لأنهم كائنات خارجة عن نطاق إدراكنا البشرى.

والله سبحانه قال، ويقول، بكيفية لا نعلمها، لأنه لم يخبرنا بتفاصيلها، ولكن أخبرنا بحدوثها، بفعل «القول». **وكأنَّا بفعل القول يستعمل في القرآن حيث أريد لفت النظر عن تفاصيل الطريقة إلى مقول القول ومضمونه.**

أما حين يراد لفت النظر إلى الطريقة فإن الأفعال الدالة على هذه الطرق تستخدم دون غيرها، وذلك قول الله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾[2] ففيه أُريد إخبار الناس بأن النحل مأمور بما يفعل، إيحاءً وتسخيراً. وقوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾[3] ففيه أريد تحديد وتفصيل دقيق: حيث نفى فعل التكليم بما فيه من نطق ومشافهة وخصص هذا النوع من الخطاب ـ خطاب الرسل ـ بأن يكون وحيًا أي إلهامًا، أو من وراء حجاب، أو بواسطة جبريل عليه السلام، والاستثناء بإلا في الآية يرجِّح أن القول لفظ شامل عام للأنواع التي منها الوحي.

---

(١) ق: ٣٠.
(٢) النحل: ٦٨.
(٣) الشورى: ٥١.